

مقتطف من كتاب: "عندما يتعري الإنسان" الشعلة والحريق"



yehiatrakhawy@hotmail.com

نشرة "الإنسان" 2018/09/29

السنة الثمانية عشرة - العدد: 4046

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

مقدمة:

امتدادا لما أشرنا إليه سابقا، وبإصرار العناد والأمل: تم تخصيص اليوم "السبت" لمقتطفات من كتاباتي السابقة التي لها علاقة دالة بالفروض التي تعتبر إرهابات أو أساس هذا الفكر الدائم النمو والتطوير.

مقتطف من كتاب:

“ عندما يتعري الإنسان (1) ”

الشعلة والحريق (2)

“.....صديقنا هذا الذي آمن حتى كفر، وعاش الكلمات التي قرأها بكل عمق وإحساس نقي، وحين أراد تحقيقها وجد كل شيء مختلفاً... ، أراد أن يضيء فاحترق... أو كاد.

قال الفتى:

- وكيف كان ذلك؟

قال الحكيم:

= هو فتى من أرض هذا البلد الطيب، حمل في نفسه تراث حضارة قديمة أصيلة، وفي جوفه طمى نيلها القوى الجبار، وانصهرت كل خلية من خلاياه بشمسها المشرقة الدافئة، وكان يؤلمه أشد الألم أن ينبض وجدانه بكل هذا الصدق والأمل، ثم هو لا يجد حوله إلا هذا التراخي والشلل، واتجه إلى الكتاب فعشق الكلمات من صغره، فمنذ العاشرة وهو يقرأ كل ما تقع عليه عيناه، آسف... لم يكن يقرأ الكلمات بل كان يعيشها، لم تكن الصفحات أمام عينيه مسطحة ملساء بل كانت دنيا زاخرة بالأشخاص، تنبض بالحياة، لم يفرق أبدا بين اللفظ والمعنى، كان اللفظ هو معناه في نفس الوقت... بل هو حقيقته.. كانت الألفاظ حقائق قائمة تسير في الحياة. بل هي الحياة. وكان من أول ما عرف من ألفاظ هو كلام الله سبحانه وتعالى، ومثل أهل هذه

كان يؤلمه أشد الألم أن ينبض وجدانه بكل هذا الصدق والأمل، ثم هو لا يجد حوله إلا هذا التراخي والشلل، واتجه إلى الكتاب فعشق الكلمات من صغره، فمنذ العاشرة وهو يقرأ كل ما تقع عليه عيناه

آسف... لم يكن يقرأ الكلمات بل كان يعيشها، لم تكن الصفحات أمام عينيه مسطحة ملساء بل كانت دنيا زاخرة بالأشخاص، تنبض بالحياة، لم يفرق أبدا بين اللفظ والمعنى، كان اللفظ هو معناه في نفس الوقت... بل هو حقيقته.. كانت الألفاظ حقائق قائمة تسير في الحياة. بل هي الحياة

كان من أول ما عرف من ألفاظ هو كلام الله سبحانه وتعالى، ومثل أهل هذه الأرض الطيبة المنبسطة كان الإيمان عنده أمرا بديهيلا يحتاج إلى منطق أو تفكير

لأمر ما يدخل الإيمان هنا- إلى القلوب مباشرة دون تفسير ودون جهد ودون مراجعة، أهي دعة الطبيعة تثير هذا الشيء، بداخل أنفسنا؟

كيفه لا؟ كيفه يمكن وسط هذه الطبيعة السملة ألا يتحرر

الإنسان من قشرته الزائفة
فإذا به جزء من كل ما حوله،
يحس بالأمن والخير، يحس
بالقوة والحق، يحس بالصدق
والأمل

قد كان نبض الدين في
عروق صاحبنا أصيل وعميق،
ولكنه حين دخل حظيرة
الدين دخلها في صدر شبابه
من باب جانبي، وإذا به في
مناهات وسراذيب...
وابتدأت تجربته.

كفرت بكل ما يقال... وكل ما
كان... وكل ما هو كائن،
وكل ما سيكون، بكل ما
كتبوه، وما لم يكتبوه، بكل
شيء وكل أحد

بالذات كفرت بالإنسان...
وبالذات كفرت بالغد.. لقد
خُذعت بما فيه الكفاية،
وما بقي مني هو العفن
الطافى فوق الجسد المتآكل

لم أمت.. بل جننت. أو هكذا
تسمون أمثالي، الموت ينتهي
إلى رماد نقي جاف، أما
الجنون فهو موت عفن
كريم، لم أستطع حتى
الموت.. لأنى كفرت بكل
شيء حتى الموت

أنا هنا لأتفرج عليك، كنت
قد قرأت عنكم معشر
الدجالين والمشعوذين
والفلاسفة وعلماء النفس
وأطباؤها ما شغلنى وبهرنى
لفترة من الزمان

مثل كل ما قرأت كان يُشعل
فيّ شمعة لها ضوء نورانى
بديع، وما إن أفترب منه
وأحاول أن أرى من خلاله
الطريق حتى أحترق، يحترق
إصبعى ثم تلمح النار وجهى،
ثم تشرق نفسى ثم مبادئى
ومؤلى وفكرى

الأرض الطيبة المنبسطة كان الإيمان عنده أمراً بديهياً لا يحتاج إلى منطق أو تفكير، فلأمر ما
يدخل الإيمان هنا- إلى القلوب مباشرة دون تفسير ودون جهد ودون مراجعة، أهي دعة
الطبيعة تثير هذا الشيء بداخل أنفسنا؟ الشيء النابض بالجوع إلى الاتصال بأصل الوجود؟
لماذا ظهرت الديانات السماوية كلها في هذه الأرض أو قريبا من هذه الأرض؟ وكيف لا؟ كيف
يمكن وسط هذه الطبيعة السهلة ألا يتحرر الانسان من قشرته الزائفة فإذا به جزء من كل ما
حوله، يحس بالأمن والخير، يحس بالقوة والحق، يحس بالصدق والأمل، إذن هو الدين في
صورته الأصلية، وقد كان نبض الدين في عروق صاحبنا أصيل وعميق، ولكنه حين دخل
حظيرة الدين دخلها في صدر شبابه من باب جانبي، وإذا به في مناهات وسراذيب... وابتدأت
تجربته.

جاء إلى شبه مختار... وجلس..

وقال:

- لقد كفرتُ بكل شيء.

قلت:

=بماذا؟

قال:

-كفرت بكل ما يقال.. وكل ما كان.. وكل ما هو كائن، وكل ما سيكون، بكل ما كتبوه،

وما لم يكتبوه، بكل شيء وكل أحد.

قلت:

=ونفسك...؟

قال :

-كفرت بنفسي أولا وقبل كل شيء.. كفرت بالأصل والفرع، بالسبب والنتيجة، بالحق

والباطل، كفرت بالشيء وضده.

قلت:

=والانسان.. والغد؟

فقال:

-وبالذات كفرت بالإنسان... وبالذات كفرت بالغد.. لقد خُذعت بما فيه الكفاية، وما
بقي منى هو العفن الطافى فوق الجسد المتآكل، اشتعلت حتى احترقت، وحتى الحريق لم يكمل
مهمته فيتركنى ترابا مقدسا، بل تركنى جسدا مشوها منتفخا سرعان ما فاحت رائحته... لست
رمادا بعد.. لم أمت.. بل جننت. أو هكذا تسمون أمثالي، الموت ينتهي إلى رماد نقي جاف، أما

الجنون فهو موت عن كريبه، لم أستطع حتى الموت.. لأنى كفرت بكل شيء حتى الموت.

قلت:

= ولكنك مازلت.. هنا.

قال:

-أنا هنا لأتفرج عليك، كنت قد قرأت عنكم معشر الدجالين والمشعوذين والفلاسفة وعلماء النفس وأطبائها ما شغلنى وبهرنى لفترة من الزمان، ولكن مثل كل ما قرأت كان يُشعل فى شمعته لها ضوء نورانى بديع، وما إن أقترب منه وأحاول أن أرى من خلاله الطريق حتى أحترق، يحترق إصبعى ثم تلمح النار وجهى، ثم تلتهم نفسى ثم مبادئى ومثلى وفكرى، وياليتهم تركونى حتى النهاية... إذن لأصبحت رمادا نقيًا، ولكن من حولى أطفأونى فلم يبق إلا جسد ممزق لا حياة فيه، ألا تعرف يا سيادة الطبيب تلك الرائحة المميزة فى من تسمونهم المجانين، نحن، أنتم تقولون إنها رائحة العرق لأنهم لا يستحمون، هذا وهمٌ سخيف، إنها رائحة عالمية تجدها تفوح من كل من تودعون مصحاتكم، إنها رائحة الحى الميت، ما علينا لا أريد أن أجهلك قبل أن أعرفك..، أقول كنت قد قرأت عنكم معشر الدجالين وأطباء النفس ما بهرنى وأضاء فى شمعته من الشمعات التى أحرقتنى، ثم طُفئت جولتى بين الكلمات والأشخاص، بين النظرية والتطبيق، بين المبادئ والواقع، وانتهيت إلى ما ترى، وجاء ذكرك شخصيا فى نهاية المطاف، قلت أتمم الجولة بك.

قلت:

= قل ما شئت..، ولكن تذكر دائما أن هناك احتمالا آخر.

قال:

- أى احتمال آخر.. لقد جربت كل الاحتمالات.. هل أحكى لك من الأول.. أم تختار أنت.. لقد جربت كل الاحتمالات.

قلت:

= قل ما تشاء.

قال:

- كان الطريق الأول هو طريق الدين.. وكنت مثل سكان هذه الأرض الطيبة - التى لم أعد أعرف لماذا هى رغم كل شيء ما زالت طيبة- كنت أحب الحق، كان هذا هو الدين الذى دخل إلى وجدانى دون تفكير دخلنى على أنه الحق، ولكنى أيضا كنت أحب الناس، كل الناس، ومن أى دين، وسمعت حينذاك دعوة تقول إن الدين هو دستور الدنيا والآخرة، هو الأول والآخرة، هو السياسة والأخلاق، هو التجارة والصناعة، هو العدالة الاجتماعية والاشتراكية

أقول كُنْتِ قد قرأت عنكم معشر الدجالين وأطباء النفس ما بهرنى وأضاء فى شمعته من الشمعات التى أحرقتنى

طُفئت جولتى بين الكلمات والأشخاص، بين النظرية والتطبيق، بين المبادئ والواقع، وانتهيت إلى ما ترى، وجاء ذكرك شخصيا فى نهاية المطاف، قلت أتمم الجولة بك

كان الطريق الأول هو طريق الدين.. وكُنْتِ مثل سكان هذه الأرض الطيبة - التى لم أعد أعرف لماذا هى رغم كل شيء، ما زالت طيبة- كُنْتِ أحب الحق

كان هذا هو الدين الذى دخل إلى وجدانى دون تفكير دخلنى على أنه الحق، ولكنى أيضا كُنْتِ أحب الناس، كل الناس، ومن أى دين

سمعت حينذاك دعوة تقول إن الدين هو دستور الدنيا والآخرة، هو الأول والآخرة، هو السياسة والأخلاق، هو التجارة والصناعة، هو العدالة الاجتماعية والاشتراكية وكل شيء، هو الحل لكل معضل.. لكل مشكل

بما أن الدين هو اتصال الإنسان بأصل الوجود، وبما أن الدين هو الفطرة السليمة، والفطرة هى الجمال والسهولة والحرية والعق والقوة والمحبة فى أن، إذن: فلا بد أن الدين هو كل شيء.

جلسنا نتدارس الدين فى حلقاته كانوا يسمونها "أسر"، ما ألقى أن يجتمع الشباب حول كتابه الله يشرق بالنور والهداية

وكل شيء، هو الحل لكل معضل.. لكل مشكل، وكنت - وقبل أن أقرأ أى شيء أشعر بأنه لا بد

أن يكون الدين فعلا هو كل هذا، وبما أن الدين هو اتصال الانسان بأصل الوجود، وبما أن الدين هو الفطرة السليمة، والفطرة هي الجمال والسهولة والحرية والحق والقوة والحب في آن، إذن: فلا بد أن الدين هو كل شيء.. ودخلت مع تلك الزمرة التي كانت تتادى بهتافات نهتز لها صدقا وحماساً.. وجلسنا نندارس الدين في حلقات كانوا يسمونها "أسر"، ما أحلى أن يجتمع الشباب حول كتاب الله يشرق بالنور والهداية، وتفقهنا - ولكن كان ممنوعا علينا أن نتفقه أكثر مما ينبغي، استبدلوا كتاب الله بكتيبات صغيرة تدخل إلى العقل من الباب الجانبي

للوجدان، ثم تتربع فوق العقل، ثم تشل حركته ذاته، وتقوم الكلمات حواجز بينه وبين ربه، بدلا من أن تكون كلمات المفتاح إليه، تضع كل المعالم كنت أحاول أن أرى نور الكلمات على الوجوه.. وكنت أجده أحيانا، ولكنني في أغلب الأحيان كنت أصدم بالترتم والقسوة، كنت أحاول أن أتلثم نبض الوجدان فأجد أن صفحات الألفاظ تنهى وتأمّر، وأخذت أختنق رويدا رويدا.. وملأني الغيظ والحنق وأنا أرى الألفاظ المضيفة وهي تستعمل لتتير دهاليز لا أعرفها، توصل إلى حجرات تحت الأرض كلها ظلام في ظلام، هي حجرات الأسر السرية قلت في نفسي: كيف؟ كيف يكون طريق النور هو حجرات مظلمة تحت الأرض؟ وكيف يتجنبون كلام الله بشموله ورحمته، ولا نندارس إلا الحرب والضرب والجهاد الموصى عليه... لقد كان الجهاد وسيلة لتعميق وتثبيت الإيمان.. ولكنه لم يكن بديلا عنه..، وصعدت السلم درجة درجة، وكلما صعدت درجة فجعت فجيعة، فأسرة الشيبية غير أسرة الشباب العلني، وهي أنقى وأطهر من أسرة الشباب السري التي كانت بدورها أصدق وأشرف من مستويات المسؤولين عن الإرشاد.. آه من "المسؤولين".. كلما اقتربت من مسئول كانت فجيعتي أكبر، هل أنت مسئول يا دكتور؟ = نعم.. أنا مسئول عن صحة الناس.. هذه مهنتي.

- إذن. فأنت لا تعرف معنى كلمة "مسئول" لو عرفتها ما وصفت نفسك بها، أو لعلك مثلهم تافه وسطحى ومتسرع، كنت وأنا صغير أعتبر المسئول مسئولا، فإذا بي أكتشف أنه كلما كان الإنسان مسئولا كانت قراراته أكثر سطحية وتصرفاته أكثر انفعالية، وشخصيته من الداخل أكثر اهتزازا، لماذا هذا التناقض يا دكتور؟

= التناقض هو من قوانين الحياة وهو المحرك الأول في تطور الانسان واستمرار الحياة.

- آه.. تطور الإنسان؟ أنت تحلم كما كنت أحلم وأنا صغير، يبدو أنك لم تتضح بعد يا دكتور، كيف تقف هذا الموقف وقد شاب المتبقي من شعرك على صلعتك؟ سأعلمك أنا معنى التناقض والنضج: التناقض الجارى هو أن تؤمن حتى تكفر، أن تحب حتى تكره، أن تتحمس حتى تتبدل، أن تصرخ حتى ينحبس صوتك، أن تكبر حتى تموت.. هذا هو التناقض.. أما النضج المعروف فهو أن تتشكل وتتلون لتتكيف مع كل زيف حولك، ما علينا، دخلت باب

تفقهنا - ولكن كان ممنوعا علينا أن نتفقه أكثر مما ينبغي، استبدلوا كتاب الله بكتيبات صغيرة تدخل إلى العقل من الباب الجانبي للوجدان، ثم تتربع فوق العقل، ثم تشل حركته

تقوم الظلمات حواجز بينه وبين ربه، بدلا من أن تكون كلمات المفتاح إليه، تضع كل المعالم

كنت أحاول أن أرى نور الكلمات على الوجوه.. وكنت أجده أحيانا، ولكنني في أغلب الأحيان كنت أصدم بالترتم والقسوة

كنت أحاول أن أتلثم نبض الوجدان فأجد أن صفحات الألفاظ تنهى وتأمّر، وأخذت أختنق رويدا رويدا..

ملأني الغيظ والحنق وأنا أرى الألفاظ المضيفة وهي تستعمل لتتير دهاليز لا أعرفها، توصل إلى حجرات تحت الأرض كلها ظلام في ظلام، هي حجرات الأسر السرية

كيف؟ كيف يكون طريق النور هو حجرات مظلمة تحت الأرض؟ وكيف يتجنبون كلام الله بشموله ورحمته، ولا نندارس إلا الحرب والضرب والجهاد الموصى عليه

صعدت السلم درجة درجة، وكلما صعدت درجة فجعت فجيعة، فأسرة الشيبية غير أسرة الشباب العلني، وهي أنقى وأطهر من أسرة الشباب السري التي كانت بدورها أصدق وأشرف من مستويات المسؤولين عن الإرشاد

الدين متسلحا بالإيمان، وتُهت في سرايب الرسائل الصغيرة واختفت برائحة الحجرات الرطبة المظلمة تحت الأرض، وأخذت الشموع تخبو في نفسى، وأظلم عقلى ولكننى مددت يدي أتحسس وجدانى فلسعتنى النار، وفرحت فقد علمت أن الشعلة ما زالت هناك، لم تخدم بعد، استمتعت بلسع النار لأنه أيقظنى قبل أن يفوت الأوان، قبل أن يعطونى مسدسا أقتل به إنسانا لا أعرفه، قالوا إنه عدو الله، لسعتنى نار وجدانى فأنقذتنى قبل أن يطمسوا عقلى بالترانيم والأقانيم والتعاويد والتسابيح، وحفاظاً على نفسى كفرت بما يفعلون، ولم أكفر بجوهر الأشياء، احتفظت بالإيمان وكفرت بالكهنوت، حافظت على صلة الإنسان بأصل الوجود ورفضت أوامر القيادات الفارغة الجوفاء، رفضت اهتزاز اللحى وهى تعزف مقطوعة القتل بعد التكفير، رفضت أن يشوه الإنسان الخير. كيف يصبح الدين النابض بالحب والتسامح هو هو طاقة الحقد والقسوة والتزمت؟ لماذا يفعل الناس بأنفسهم وبمعتقداتهم هكذا؟

هذه مجرد البداية وربما نكمل - السبت القادم - مقتطفات قرب النهاية.

- [1] هذا الكتاب برغم صدوره منذ حوالى نصف قرن مازال يمثل كتيبى كتاب قبولا ورواجا عند القارئ العادى، وهو عرض لحالات متخيلة (نابعة من واقع مؤلم رائع)، تبدأ بحوار بين فتى فى فترة نقاهة وطبيبه الحكيم الذى يستجيب له ويحكى له عن خبرته على لسان مرضاه، وهذا المقتطف هو بداية حكاية هذا الإنسان الذى آمن حتى كفر، فمرض.

- [2] المقتطف: من حكاية "الشعلة والحريق": كتاب "عندما يتعري الإنسان" (الطبعة الأولى 1969، والطبعة الرابعة 2017) منشورات جمعية الطب النفسى التطورى، والكتاب يوجد فى الطبعة الورقية فى مكتبة الأنجلو المصرية وفى منفذ مستشفى دار المقطم للصحة النفسية شارع 10، وفى مركز الرخاوى للتدريب والبحوث: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضا بموقع المؤلف، وهذا هو الرابط www.rakhawy.net

إرتباط كامل النص:

www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD290918.pdf

*** ** *

جائزة الغالى أحرشوا لشبكة العلوم النفسية العربية 2018

دعوة لتقديم الترشيحات

شروط الترشح للجائزة

www.arabpsynet.com/Prizes/Prize2018/APNprize2018.pdf

ارتباطات ذات صلة

دليل جائزة شبكة العلوم النفسية على المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com/arabpsynet.php?p=2>

دليل جائزة شبكة العلوم النفسية على الفيس بوك

<https://www.facebook.com/Arabpsynet-Award-289735004761329/?ref=bookmarks>

كلما اقتربت من مسئول
كانت هيبعتى أكبر، هل
أنت مسئول يا دكتور؟

كنت وأنا صغير أعتبر
المسئول مسؤولا، فإذا به
أكتشف أنه كلما كان
الإنسان مسؤولا كانت
قراراته أكثر سطحية
وتصرفاته أكثر انفعالية،
وشخصيته من الداخل أكثر
اهتزازا

التناقض الجارى هو أن
تؤمن حتى تكفر، أن تصب
حتى تكفر، أن تتحسس حتى
تتبلد، أن تصرخ حتى ينعبس
صوتك، أن تكبر حتى
تموت... هذا هو التناقض

النضج المعروف فهو أن
تشكل وتتلون لتتكيف مع
كل زيف حولك

دخلت باب الدين متسلحا
بالإيمان، وتُهت فى سرايب
الرسائل الصغيرة واختفت
برائحة الحجرات الرطبة
المظلمة تحت الأرض،
وأخذت الشموع تخبو فى
نفسى، وأظلم عقلى ولكننى
مددت يدي أتحسس
وجدانى فلسعتنى النار